مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

تأملات في الإسلام والفكر الحديث

بقلم
سيد حسين نصر
ترجمة: الأستاذ محمد حسن قرينات - جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

قليلة هي تلك الموضوعات التي أثارت جدلاً وانفعالاً أكثر مما أثارته المواجهة بين الإسلام والفكر الحديث. والموضوع بطبيعة الحال واسع، ويضم ميادين تمتد من السياسة إلى الفن المقدس، وهي ميادين غالباً ما تسبب مناقشتها في انفجارات قوية للعواطف والمشاعر وكذلك للقدح الذي لا يمكن أن يقود إلى تحليل موضوعي للأسباب ولا إلى رؤية واضحة للمشاكل المثارة، كما أن هذه المناقشة التي استهلكت الكثير من طاقات المسلمين ودارسي الإسلام ينقصها عدم وجود مفاهيم واضحة لمصطلحات المناقشة وإدراك جلي للقوى الحقيقية المتعلقة بهذه المسألة. كما أن المناقشة بأكملها تعتبر مشلولة نتيجة شعور نفسي بالنقص والضعف أمام العالم الحديث، والذي يمنع معظم المسلمين (المتعصرنين) من القيام بتقييم نقدي للموقف وعرض الحقيقة بغض النظر عما إذا كانت عصرية متمشية مع الرأي السائد أم لا. وعليه فلنبدأ بتعريف معنى مصطلح الفكر الحديث.

معنى «الحديث»:

إنه لمن المدهش حقاً ذلك العدد الكبير من أشكال وظلال المعاني التي أضفيت على لفظ (الحديث) وهي تمتد من معنى المعاصر إلى (المجدد) و(المبدع) أو المتمشي مع سياق الزمن. أما فيما يتعلق بمسألة المبادىء بل الحقيقة في حد ذاتها فلا تكاد تؤخذ في الاعتبار عندما تناقش مسألة الحداثة، إذ قلما يسأل المرء عما إذا كانت هذه الفكرة أو تلك الصّيغة أو القانون تنسجم مع بعض أوجه الحقيقة. ويبدو أن انعدام الوضوح والدقة للحدود الفكرية والفنية التي تميز العالم الحديث يشوش ويعيق فهم المسلم المعاصر للحداثة، سواء كان يرغب في تبني معتقداتها أو حتى في مقاومتها. ويبدو أن تأثير الحداثة قد عتّم ذلك الوضوح ولطّخ تلك الشفافية التي تميّز الدين الإسلامي الحقيقي في مظاهره الفكرية والفنية. وعندما نستخدم عبارة «حديث» فإننا لا نعني المعاصر ولا الجديد ولا النجاح في قهر العالم المادي والسيطرة عليه، بل ان عبارة «حديث» تعني لدينا ذلك الشيء الذي فصل عن كل ما هو متسام وعن المبادىء الثابتة التي هي في الحقيقة تحكم كل الأشياء والتي عرفها الإنسان في أدق معانيها الكونية عن طريق الوحي. وهكذا فإن الحداثة تختلف عن الدين حيث يتضمن الأخير كل ما هو ذو أصل سماوي إلهي إلى جانب مظاهره وتطبيقاته وانتشاره على مستوى البشر، على حين تعني الحداثة بالمقارنة بكل ما هو بشري فقط، بل تعني الآن وبشكل متزايد كل ما هو شبه بشري وكل ما كان ابتعد وانقطع عن المصدر السماوي. ومن الواضح أن الدين كان دائماً مصاحباً ومميّزاً للوجود البشري. غير أن الحداثة ظاهرة حديثة جداً، فمنذ أن عاش الإنسان على هذه الأرض يؤمن وهو يدفن أمواته باليوم الآخر وبعالم الروح، فخلال مئات الآلاف من السنين من حياة البشرية على الأرض كان الإنسان تقليدياً في نظرته وتطلعاته **ولم يتطور فيما يخص علاقته بالرب ونظرته للطبيعة على أساس أنها تجلٍّ للآلهة**. وإذا ما قورن هذا التاريخ الطويل الذي استمر فيه الإنسان يحتفل بالدين ويؤدي وظائفه خليفة لله في الأرض، بالفترة التي سيطرت فيها الحداثة ابتداء من النهضة في أوروبا الغربية في القرن الخامس عشر وحتى يومنا هذا، فإن الأخيرة تبدو قصيرة جداً وكأنها

غمضة عين. إلا أنه في أثناء هذه اللحظة الزائلة التي نعيشها نحن، كانت السيطرة الواضحة لقوة الحداثة التي يتراجع ويتقهقر أمامها الكثير من المسلمين في ضعف أو ينضمون إليها متأثرين بإدراك سطحي للسعادة التي ترافق إغراءات هذا العالم. وهنا يجب أن نقول كلمة حول مصطلح (الفكر) كما هو مستخدم في عبارة (الفكر الحديث). فهذا المصطلح كما استُعْمِل في هذا السياق في حد ذاته حديث وليس دينيّاً، فكلمة «فكر» العربية أو انديشاه الفارسية (اللتان تقابلان مصطلح) «الفكر الحديث» قلما تظهران بنفس المعنى في النصوص الدينية. وفي الحقيقة أن ما يتوافق مع المعنى الديني لهذا المصطلح هو المصطلح الفرنسي (Pensée) كما استخدمه باسكال، وهو مصطلح يمكن أن يترجم بمعنى «التأمل» بدلاً من «الفكر». وفي الحقيقة يرتبط كل من المصطلح العربي (فكر) والفارسي انديشاه بالتفكير والتأمل أكثر من ارتباطهما بما هو نشاط عقلي غير سماوي. وهو عادة ما يوحي به مصطلح «الفكر». فإذا ما استخدمنا رغم ذلك هذا المصطلح فلأننا نخاطب جمهوراً تربى على كل ما يدل عليه هذا المصطلح، ولأننا نستخدم لغة لا يمكن من خلالها استخدام مصطلح آخر بنفس المعنى يتضمن عدة أشكال للنشاط العقلي ولكنه خال من القصور بمعناه الرأسي الذي يحمله مصطلح الفكر في اللغة المعاصرة.

خصائص الفكر الحديث

الإنسان هو محور الاهتمام:

إن جميع أشكال وأوجه النشاط العقلي التي تكوّن الفكر الحديث والتي تمتد من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وإلى علم النفس وحتى بعض أوجه الدين نفسه، جميعها تمتلك بعض الصفات المشتركة التي يجب أن تدرك وتدرس قبل تقديم الرد الإسلامي على الفكر الحديث. ولعل السّمة الأساسية الأولى للفكر الحديث التي يجب أن تدرك هي طبيعته المتعلقة بكون الإنسان هو محور الاهتمام فيه. كيف يمكن أن يكون أي شكل من أشكال الفكر الذي ينفي كل مبدأ أعلى من الإنسان إلّا مجرد تفكير بشري محض؟ ومن الممكن أن يعترض على ذلك على

أساس أن العلم الحديث في الحقيقة ليس مرتكزاً على الإنسان. ولكن ذلك يمكن أن ينسحب على ما قبل العلوم الحديثة التي يمكن اعتبار أنها كانت تدور حول الإنسان. إلا أن هذا التأكيد هو مجرد وهم أو خديعة إذا ما درس الواحد منا بتمعن العامل المعرفي المتعلق بهذا الأمر. صحيح أن العلم الحديث يصف كوناً لا مكان للإنسان بوصفه روحاً وعقلاً، وحتى نفساً ـ فيه وهكذا يصبح الكون وكأنه «لاإنساني» ولا يرتبط بعالم الإنسان. ولكن يجب ألا ننسى أنه على الرغم من أن الإنسان الحديث قد اخترع علماً ألغى فيه حقيقة الإنسان من الصورة الإجمالية للكون، فإن معايير وأدوات المعرفة التي تحدد هذا العلم هي بشرية بحتة. إن عقل الإنسان وحواسه هما اللذان يحددان العلم الحديث. إن المعلومات المتعلقة حتى بأبعد الكواكب موجودة في عقل الإنسان. إن هذا العالم العلمي هو في الواقع مبني على أساس أن الإنسان هو محور الارتكاز فيه، وذلك فيما يتعلق بالجانب الذاتي للمعرفة أي الشخصي الذي يعرف ويحدد ماهية العلم.

وعلى خلاف ذلك فإن العلوم الدينية لم تكن متمركزة حول الإنسان، أي إن مكان المعرفة ووعاءها لتلك العلوم لم يكن عقل الإنسان ولكن في النهاية هو فكر سماوي، ولم تكن تلك العلوم مبنية على التفكير الإنساني المجرد ولكن على الفكر الذي ينتمي إلى مستوى للحقيقة هو فوق مستوى البشر، ولكنه مع ذلك ينير العقل الإنساني. وإذا كانت علوم الكون في القرون الوسطى قد وضعت الإنسان في مركز الأشياء فليس لأنها كانت إنسانية حسب مفهوم النهضة الأوروبية للمصطلح الذي يقول إن الإنسان الدنيوي الفاني هو مقياس كل الأشياء. ولكن لكي تمكن الإنسان من اكتساب رؤية واضحة للكون باعتباره ممرّاً يمر خلاله الإنسان ويرتقي. وبكل تأكيد فإن الإنسان لا يستطيع أن يبدأ أي رحلة من أي مكان إلا من المكان الذي يوجد هو فيه.

ويمكن رؤية خاصية التمركز حول الإنسان هذه أكثر وضوحاً في أشكال وأوجه أخرى للفكر الحديث سواء كانت على النفس أو الأنثروبولوجيا أو الفلسفة. ولقد أصبح الفكر الحديث الذي كانت الفلسفة فيه إلى حد ما هي الأب والسلف متمركزاً حول الإنسان منذ اللحظة التي جعل منها هذا الإنسان

معياراً للحقيقة. فعندما نطق ديكارت: «أنا أفكر إذاً أنا موجود» فإنه وضع إدراكه الشخصي لنفسه المحدودة معياراً للوجود. فبدون شك ان (أنا) في توكيد ديكارت هي غير (أنا) السماوية التي هتفت وصرخت من خلال الحلاّج (أنا الحق). فـ«(أنا)» السماوية هي وحدها التي لها الحق وفق التعاليم والمذاهب الدينية ـ أن تقول «أنا». فحتى عصر ديكارت كان هناك وجود مجرد وهو وجود الله الذي حدد الوجود البشري والمستويات المتعددة للحقيقة. ولكن مع ظهور المذهب العقلي الديكارتي أصبح الوجود الفردي للإنسان هو الاتجاه السائد للفكر الغربي. وباستثناء بعض التطورات الجانبية فإن علم الوجود أفسح المجال أمام نظرية المعرفة، ونظرية المعرفة بدورها أفسحت المجال أمام علم المنطق، وأخيراً أصبح المنطق في مواجهة مع الفلسفات اللاعقلانية والسائدة في الوقت الحاضر.

إن الذي حدث في فترة ما بعد العصور الوسطى في الغرب هو أن المستوى الأعلى للحقيقة أصبح مهملاً على الصعيدين الذاتي والموضوعي، إذ لم يكن هناك أي شيء في الإنسان أعلى من تفكيره ولا شيء أرقى في العالم المادي أكثر مما يستطيع العقل أن يدركه أو يفهمه بمساعدة الحواس الإنسانية الطبيعية. وبطبيعة الحال كان حدوث هذا الأمر شيئاً حتمياً، إذ أنه ينسجم مع مبدأ الملاءمة المعروف (مبدأ الكفاية أو الملاءمة عند القديس توماس الاكويني). فطبقاً لهذا المبدأ لكي تتم معرفة شيء ما يجب أن تكون هناك أداة معرفة ملائمة ومطابقة لطبيعة الشيء المراد معرفته. وحيث أن الإنسان الحديث رفض أن يقبل أي مبدأ أعلى منه، فإن كل ما صدر عن تفكيره لا يمكن فهمه إلا متمركزاً حول الإنسان.

انعدام المبادىء:

السمة الثانية للحداثة والوطيدة الارتباط بالتركيز على الإنسان هي انعدام المبادىء التي تميّز العصر الحديث. فالطبيعة البشرية غير مستقرة بدرجة كبيرة ومتغيرة ومضطربة بحيث لا تصلح أن تكون مبدأ لأي شيء. ذلك هو السبب الذي يجعل أسلوب التفكير غير القادر على الارتقاء فوق مستوى البشر خالياً من المبادىء. فعلى مستوى السلوك (أو الأخلاقيات رغم أن الأخلاقيات لا يمكن

اعتبارها مجرد سلوك) ومن وجهة نظر أخرى في ميدان السياسة والاقتصاد يستطيع أي شخص أن يحس ويدرك انعدام المبادىء بالرغم من اعتراض البعض على أساس أن المبادىء موجودة في العلم. إلا أنه يجب التأكيد هنا مرة أخرى بأنه لا المنهج التجريبي ولا الإثبات عن طريق الاستقراء ولا حتى الاعتماد على معلومات الحواس التي يؤكدها العقل يمكن أن تصلح كمبادىء بالمعنى الميتافيزيقي، فكلها صحيحة في مستوياتها كما هو الحال بالنسبة للعلم الذي ينتج عنها ولكنها منفصلة عن المبادىء الثابتة كما هو الحال بالنسبة للعلم الحديث الذي اخترع أشياء كثيرة في مستوى معين للواقع. ولكن نتيجة انفصاله عن مبادىء عليا فإنه أوجد حالة عدم تساو بسبب اختراعاته واكتشافاته ذاتها. فمن بين العلوم الحديثة يمكن أن يقال ان الرياضيات وحدها تمتلك بعض المبادىء بالمعنى الميتافيزيقي، والسبب في ذلك هو أن الرياضيات لا زالت رغم كل شيء علماً أفلاطونياً، وقانونها الذي اكتشف بواسطة العقل البشري لا يزال يعكس المبادىء الرياضية حيث أن التفكير نفسه لا يمكن إلا أن يبرز ويظهر حقيقة أنه انعكاس (حتى ولو كان باهتاً) للعقل. إن اكتشاف العلوم الأخرى ـ إلى الحد الذي تتوافق مع طبيعة الواقع يكتسب بطبيعة الحال قيمة رمزية وميتافيزيقية. ولكن هذا لا يعني أن هذه العلوم مرتبطة بمبادىء ميتافيزيقية وأنها تتحد في شكل سام للمعرفة. إن مثل هذا الاتحاد كان يمكن أن يحدث ولكنه لم يحدث. ولذلك فإن العلوم الحديثة ومبادئها العامة مثلها مثل كل النتائج الأخرى لذلك الأسلوب من التفكير والعمل المقترن بالحداثة تعاني من انعدام المبادىء وهي ظاهرة تميز العالم الحديث وتصبح ملموسة بدرجة كبيرة عندما يتجلى تاريخ العالم الحديث أمام العيان. ويمكن أن يتساءل المرء عن الوسائل الأخرى للمعرفة التي كانت موجودة عند الحضارات التي سبقت الفترة الحديثة. والإجابة واضحة على الأقل لدى المسلمين الذين يعرفون الحياة الفكرية للإسلام وهي الحدس والاستكشاف والمشاهدة. فقد اعتبر المفكر المسلم الوحي الوسيلة الأولى للمعرفة وليس فقط وسيلة لتعلم القوانين الأخلاقية المتعلقة بالحياة العملية. وكان أيضاً مدركاً لإمكانية قيام الإنسان بتطهير نفسه التي تفتح عين القلب الموجودة في مركز كيانه وتساعده على الرؤية الواضحة للحقائق

الميتافيزيقية. وأخيراً فإنه قبل قوة العقل من أجل المعرفة. ولكن هذا العقل كان دائماً يستمد العون والمساعدة من الوحي من ناحية ومن الحدس الفكري من ناحية أخرى. والقلّة في العالم الإسلامي الذين كانوا قد قطعوا حبل الاعتماد هذا وأعلنوا استقلال العقل عن الوحي والحدس الفكري ورفضوا الاتجاه السائد في الفكر الإسلامي وبقوا أشخاصاً هامشيين، على حين نجد العكس في بلاد العرب بعد العصور الوسطى حيث أن أولئك الذين سعوا للمحافظة على حبل الاعتماد هذا، هم الذين بقوا هامشيين في الوقت الذي رفض فيه الاتجاه الفكري السائد في الغرب الحديث الوحي والحدس الفكري وسيلتين للمعرفة. وفي العصور الحديثة قلّما دافع الفلاسفة والمتخصصون في الدين عن الإنجيل على أساس أنه مصدر للمعرفة الحكيمة التي يمكن أن تحدّد وتوحّد العلم على طريقة القديس بونا نينتشر (Bonaven ture). والقليلون الذين يعتمدون على الإنجيل للإرشاد الفكري غالباً ما يكونون قاصرين نتيجة تفسيراتهم السطحية للكتاب المقدس، الأمر الذي يجعل المعسكر العقلي حتماً هو المنتصر في أي صراع لهم معه.

مفهوم الإنسان:

عندما يفكر المرء ملياً في هذه الصفات وغيرها من الملامح البارزة للحداثة فإنه يصل إلى نتيجة مفادها أنه لكي نفهم الحداثة وتطبيقاتها لا بد من استيعاب مفهوم الإنسان الذي يشكل الأساس بالنسبة لها. يجب أن يحاول الفرد أن يكتشف كيف يفكر الإنسان الحديث في ذاته وفي مصيره، كيف يرى الإنسان علاقته بالله والعالم. إلى جانب ذلك لا بد من فهم ماهية الشيء الذي يكوّن أرواح وعقول الرجال والنساء الذين لا زالت أفكارهم وآراؤهم تصوغ وتشكل العالم الحديث. فبكل تأكيد لو كان رجال مثل الفارابي أو ابن الرومي أو اريجينا أو ديكارت يحتلّون كراسي الفلسفة في الجامعات العريقة في الغرب فإن لوناً مختلفاً من الفلسفة سيظهر في هذا الجزء من العالم. الإنسان يفكر وفقاً لما هو عليه، أو كما قال أرسطو: المعرفة تعتمد على أسلوب العارف. إن دراسة مفهوم الإنسان على أساس أنه متحرر من الملكوت السماوي وسيد مصيره، ودنيوي

وسيد على الأرض غير واع أو غافل عن الحقائق الأخروية التي استبدلها بدرجة الكمال المستقبلي في زمن دنيوي وغير مكترث إن لم يكن معارضاً تماماً لعالم الروح ومتطلباتها وليس لديه معنى للمشيئة المقدسة. إن مثل هذه الدراسة سوف نكشف كيف كانت جهود أولئك المسلمين المتعصرنين الذين سعوا إلى التوفيق بين الإسلام والحداثة كما عرّفناها غير ذات جدوى. وإذا ما أعرنا ولو نظرة خاطفة للمفهوم الإسلامي للإنسان: أي الإنسان المسلم، فإننا سنكتشف عدم إمكانية التوفيق بين هذا المفهوم ومفهوم الإنسان الحديث. فالإنسان المسلم هو في آن واحد عبد الله وخليفته في الأرض، فهو ليس حيواناً تصادف أنه قادر على أن يتحدث ويفكر ولكنه إنسان يمتلك روحاً خلقها الله. الإنسان المسلم يحوي داخل نفسه طبائع النبات والحيوان إذ أنه (أشرف المخلوقات) ولكنه لم يتطور من أشكال دنيا للحياة. فالإنسان كان دائماً هو الإنسان.

المفهوم الإسلامي للإنسان يصوّر الإنسان كأنما يعيش على الأرض وله متطلبات دنيوية ولكنه ليس دنيوياً فقط وإن احتياجاته ليست مقتصرة على أمور دنيوية. إنه يحكم هذه الأرض ولكنه يقوم بذلك خليفة لله أمام كل المخلوقات الأخرى. وهكذا فإنه يتحمل مسؤولية النظام المخلوق أمام الخالق وأنه هو قناة الرحمة والعطف لمخلوقات الله. الإنسان المسلم يمتلك ملكة التفكير والعقل التي تُميِّز وتحلّل ولكن قدراته العقلية ليست مقتصرة على التفكير فقط، فهو لذلك يمتلك إمكانية المعرفة الذاتية، معرفة كيانه الذاتي الداخلي التي هي في الحقيقة الوسيلة لمعرفة الله طبقاً للحديث المشهور «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» وهو يعرف أن ضميره ليس مستمداً من سبب مادي خارجي ولكنه يتأتّى من الله وأنه عميق جداً بحيث لا يتأثر بالموت. وهكذا فإن الإنسان المسلم يبقى مدركاً للحقائق الأخروية وأنه على الرغم من معيشته على الأرض فإنه هنا كمسافر بعيد جداً عن مقره الأصلي، وأنه مدرك بأن دليله في رحلته هو الرسالة التي تنبع من الأصل وأن هذه الرسالة ليست إلا وحياً ملتزماً به ليس فقط من ناحية القوانين المتمثلة في الشريعة بل من ناحية المعرفة والحقيقة وهو أيضاً مدرك بأن قدرات الإنسان ليست مقتصرة على الحواس والعقل ولكنها تذهب إلى الحد الذي يجعله

قادراً على أن يسترد تحقيق وجوده ويثبت على أرض الواقع كل الإمكانيات التي زوده بها الله. فعقل الإنسان وتفكيره يمكن أن يستنير بنور العالم الروحي ويصبح قادراً على أن يتحصل على معرفة مباشرة عن العالم الروحي الذي يشير إليه القرآن (بعالم الغيب).

ومن الواضح أن مثل هذا التعريف يختلف اختلافاً كبيراً عن تعريف الإنسان الحديث الذي يرى نفسه مخلوقاً دنيوياً مطلقاً وسيداً للطبيعة ومسؤولاً أمام نفسه فقط. ولا يمكن التوفيق بين المفهومين بأي قدر من الحجج الواهية. إن المفهوم الإسلامي للإنسان يستبعد إمكانية قيام أي ثورة بروميثانية ضد ملكوت السماء ويدخل الله في الأوجه الدقيقة للحياة. وهكذا فإن هذا المفهوم يقود إلى خلق حضارة وفلسفة وفن ـ بل أسلوب تفكير ـ وإلى رؤية الأشياء التي لا تتمحور حول الإنسان وتتمحور حول الدين وتقف مخالفة لمبدأ التركيز على الإنسان الذي يعتبر خاصية مميزة للحداثة. ليس هناك أكثر اشمئزازاً للمسلم وإثارة لعواطفه من الفن البروميثاني والتيتاني المعروفين في النهضة الأوروبية وكذلك الفن الباروكي الذي يقف مضاداً ومختلفاً مع الفن الإسلامي. فالإنسان في الإسلام يفكر ويعمل وفقاً لوظيفته بوصفه إنساناً عاقلاً وحكيماً وعبداً لله وليس مخلوقاً يثور ضد السماء. وتبقى وظائفه ليست تمجيداً لنفسه وعبادتها ولكن تمجيد لله وعبادته وهدفه الأسمى هو أن يصبح (لا شيء) لكي يتسنى له أن يتعرض للفناء الذي سوف يساعده على أن يصبح مرآة يتأمل فيها الله اسمه وصفاته وأن يكون القناة التي من خلالها تنعكس تجليات أسمائه وصفاته على الأرض.

وبطبيعة الحال فإن ما يميز المفهوم الإسلامي للإنسان يتشابه بشكل عميق مع مفهوم الإنسان في الأديان الأخرى بما فيها المسيحية، وإننا سنكون آخر من ينكر هذه النقطة. ولكن الحداثة ليست المسيحية أو أي دين آخر، وأن ما يدور في خلدنا هنا هو المواجهة بين الإسلام والحداثة وليست مقارنته بالمسيحية وإلّا فإن أقرب شيء إلى تعاليم الإسلام هو القول بأن الإنسان خلق لكي يسعى للحصول على الكمال والسعادة الروحية النهائية عن طريق النموّ الفكري والروحي وأن الإنسان يكون إنساناً فقط عندما يطلب الكمال ويحاول أن يتجاوز ذاته هذا

أقرب إلى تعاليم الإسلام من القول اللاهوتي الذي يرى بأنه لكي يصبح الإنسان إنساناً حقيقياً عليه أن يكون أكثر من كونه بشراً.

نظرية النشوء:

تقف خصائص ومميزات الفكر الحديث التي نوقشت أعلاه ـ أي تمحوره حول الإنسان وبالتبعية طبيعته العلمانية وانعدام المبادىء في مختلف فروع الفكر الحديث، ومبدأ الإنقاص المرتبط بها والذي يظهر بشكل واضح في ميادين العلوم ـ تقف جميعاً في تعارض كامل مع معتقدات الفكر الإسلامي يماثل تعارض المفهوم الحديث للإنسان الذي نتجت عنه كل أنماط التفكير هذه مع المفهوم الإسلامي للإنسان. وهذا التضاد والتعارض واضح هنا بدرجة لا نحتاج معها إلى المزيد من الشرح والتوضيح. إلا أنه هناك خاصية للفكر الحديث بحاجة إلى المناقشة بشكل مفصل نظراً لانتشارها وشيوعها في العالم الحديث ولتأثيرها المدمّر على الفكر الديني وحياة أولئك المسلمين الذين تأثروا بها، ونعني بها نظرة النشوء. لا توجد نظرية حديثة في الغرب ألحقت ضرراً بالدين مثل نظرية النشوء التي بدلاً من أن تؤخذ فرضية في علم الأحياء والحيوان وعلم الاحاثة، أخذت وكأنها عملية مثبتة، علاوة على ذلك فإنها قد أصبحت نمطاً للتفكير يشمل مجالات متباعدة مثل الفيزياء الفلكية وتاريخ الفن. ولم يكن تأثير هذا النمط من التفكير أقل سلبية على المسلمين المتأثرين به من المسيحيين. وقد حاول المسلمون المتعصرنون التفاهم مع نظرية النشوء من خلال التفسيرات غير المعقولة للقرآن الكريم متناسين أنه لا توجد طريقة للتوفيق بين مفهوم الإنسان (آدم) الذي علمه الله الأسماء كلها وجعله خليفة له في الأرض ومفهوم النشوء الذي يرى أن الإنسان تطور من القرد. ومن الغريب حقاً أنه باستثناء البعض من المفكرين المسلمين المتشددين الذين رفضوا نظرية النشوء على أساس ديني بحت، فإن قلة من المسلمين كلفت نفسها عناء البحث والنظر في عدم مصداقيتها وفي الأدلة العلمية المضادة لها والتي قدمها علماء مثل ل. بونير ود. ديوار بالرغم من الادعاءات القائلة بقبولها والموجودة في العديد من المعاجم والموسوعات المعتمدة. وقد وصف اي. ف. شوماتشر نظرية النشوء بأنها ليست علماً بل خيال علمي أو

نوع من الخدعة. وقد ذهب بعض النقاد الغربيين إلى حد القول بأن مؤيدي نظرية النشوء يعانون من عدم توازن نفسي. زد على ذلك أن سيلاً من الأدلة مستقاة من نظرية المعلومات قد استخدمت هي الأخرى ضدها.

ليس هدفنا هنا أن نحلّل ونفنّد بشيء من التفصيل نظرية النشوء على الرغم من أن مثل هذا الدحض والتحليل من قبل المفكرين المسلمين هو أمر ضروري لكي يكونوا وجهة نظر علمية ميتافيزيقية وفلسفية ومنطقية ودينية كما حدث في الغرب. إن ما يجب الإشارة إليه هنا أن وجهة النظر النشوئية التي ترفض أن ترى الاستقرار في أي مكان والتي يكون فيها الأكبر قد ارتقى بطريقة أو بأخرى من الأصغر والتي ترتبط بالمستويات العليا للوجود وحقائق الواقع البدائي الذي يحدد أشكال هذا العالم، كلها لا تعدو في الواقع عن كونها نتيجة لانعدام المبادىء المشار إليها أعلاه. إن نظرية النشوء ليست إلا محاولة يائسة لملء الفراغ الذي نشأ عن محاولة الإنسان لاستبعاد يد الله عن خلقه ونكران أي مبدأ فوق الإنسان المجرد. وعندما يهمل مبدأ التسامي يصبح العالم دائرة بدون مركز وتبقى عملية فقدان المركز هذه حقيقة وجودية أمام أي شخص يقبل أطروحة الحداثة سواء أكان مسيحياً أم مسلماً.

الطوبائية:

ترتبط فكرة النشوء ارتباطاً وثيقاً بفكرتي الطوبائية والارتقاء اللتين هزتا العالم الغربي من جذوره فلسفياً وسياسياً خلال القرنين الماضيين وتؤثران الآن تأثيراً كبيراً في العالم الإسلامي. لحسن الحظ لم تعد فكرة الارتقاء الثنائي ينظر إليها بجدية من طرف مشاهير المفكرين من الغرب في الوقت الحاضر ويرفضها تدريجياً العالم الإسلامي على أساس أنها «وهم العقل» والتي كان الجيل الأول من المتعصرنين المسلمين قد ركع أمامها وتقبلها بدون تردد. ولكن الطوبائية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة الارتقاء والتي تتطلب دراسة وتحليلاً عميقين وذلك نتيجة للتأثير المدمّر الذي أحدثته ولا تزال تحدثه في شريحة كبيرة من المسلمين المتعصرنين.

يعرّف قاموس أكسفورد الطوبائية كما يلي: (هي خطط مثالية مستحيلة، هدفها تحسين الأحوال الاجتماعية أو البلوغ بها درجة الكمال). وعلى الرغم من أن أصل هذا المصطلح يعود إلى رسالة سير توماس مور (Sir Thomas Moore) المشهورة المعنونة (Utopia) أو (الطوبائية) والتي كتبت في سنة 1516 باللغة اللاتينية، فإن مصطلح الطوبائية الذي يستخدم اليوم له دلالات وتفسيرات تختلف عما كان عليه في القرن السادس عشر، علماً بأن المصطلح نفسه مشتق من عمل «مور» المشهور.

إن نظرية التجسّد الإلهي في المسيح عند المسيحيين والمرتبطة بنوع من المثالية والتي تميز المسيحية كانت بطبيعة الحال موجودة قبل العصور الحديثة. وقد أقحمت الطوبائية نفسها على الهيكل الساخر لهذه الخصائص، وسواء ظهرت في شكل اشتراكية إنسانية أو في شكل أشخاص في شكل للقديس سيمون وتشارلز فودير أو روبرت أوين أو في شكل الاشتراكية السياسية التي يمثلها ماركس وانجلز، فإنها في النهاية قادت إلى مفهوم تاريخي يعتبر حقيقة (محاكاة هزلية لمدينة الله الأغسطينية) وأدت طوبائية العصور الماضية (وهي إحدى الخصائص الهامة للحداثة) مضافاً إليها الأشكال المختلفة للمسيحية ـ ولا زالت تؤدي ـ إلى اضطرابات اجتماعية وسياسية كبيرة، لا يمكن لأهدافها وطرائقها إلّا أن تكون غريبة عن روح وأهداف الإسلام. فالطوبائية تسعى إلى إقامة نظام اجتماعي كامل ومثالي من خلال وسائل إنسانية محضة وتتجاهل وجود الشر في العالم بالمفهوم الديني وتهدف إلى عمل الخير دون الحاجة إلى الله، كما لو أنه من الممكن خلق نظام مبني على الخير ولكنه مفصول عن مصدر الخير.

لقد وصف الإسلام هو الآخر المدينة المتكاملة في أعمال مثل أعمال الفارابي التي يصف فيها المدينة الفاضلة وكذلك كتابات الشيخ شهاب الدين السهروردي التي تشير إلى أرض الكمال التي تدعى في الفارسية (ناكوجا أباد) والتي تعني حرمنا «أرض الطوبائية التي لا مكان لها». ولكن كان دائماً يؤخذ في الحسبان أن أرض الكمال هذه لا مكان لها وأنها تتعدى مجال الأرض وأنها ترتبط بالسماء الثامنة. فالواقعية الموجودة في النظرة الإسلامية، بالاضافة إلى تأكيد القرآن

الكريم على أن المجتمع الإسلامي يفقد الكمال تدريجياً كلما ابتعد عن مصدر الوحي، حالت دون نمو الطوبائية الموجودة في الفلسفة الأوروبية المعاصرة في تربة الفكر الإسلامي. علاوة على ذلك فإن المسلم بقي دائماً مدركاً أنه إذا ما كانت هناك إمكانية لقيام دولة فإن ذلك يتأتى فقط بعونٍ من الله. ومن ثمّ فإنه على الرغم من أن فكرة التجديد الدوري للإسلام عن طريق المجدد لا تزال دائماً قائمة مثل ما تزال موجة «المهدية» التي تسعى من خلال القوة، التي سيرسلها الله لإرجاع الإسلام إلى كماله وصحته. لم يواجه الإسلام قط داخله ذلك النوع من الطوبائية العلمانية غير الدينية التي تشكل أساس الكثير من أوجه السياسة الاجتماعية للفكر المعاصر. وهكذا فإنه من الضروري إدراك الفرق الكبير بين الطوبائية الحديثة وبين التعاليم الإسلامية المتعلقة (بالمجدّد) أو تجديد المجتمع الإسلامي أو المهدي نفسه. كما أنه من الضروري التمييز بين الشخصية الدينية للمجدّد وبين المصلحين المحدثين الذين تتجه مواقفهم الضعيفة حيال الفكر المعاصر والذين قلّما أحدثوا تجديداً في الإسلام.

معنى القدسية:

أخيراً، هناك صفة أخرى من صفات الفكر الحديث يستوجب ذكرها ولها علاقة بكل ما ذكر أعلاه. هذه الصفة هي انعدام معنى القدسية والإحساس بها. فالإنسان الحديث يمكن عملياً أن يعرّف على أساس أنه فاقد للشعور بالقدسية. وهي سمة واضحة في الفكر الحديث. وهذه الحركة الإنسانية الحديثة لا يمكن فصلها عن العلمانية. ولكن لا يوجد شيء أعمق من وجهة النظر الإسلامية التي لا يوجد بها مثل هذه المفاهيم (أي العلمانية والخلاعة اللادينية). إذ في الإسلام، كما ذكرنا يغوص الفرد في أعماق عالم التعددية ولا يسمح لأي نفوذ خارج نفوذ الدين وسلطته. ويمكن ملاحظة هذا، ليس فقط في الأوجه الفكرية للإسلام ولكن أيضاً في نمط ملتزم في الفن الإسلامي. فالدين الإسلامي لا يمكن قط أن يقبل أي نمط للتفكير خال من رائحة القدسية يستبدل فيه بالنظام السماوي نظاماً تابعاً من مصدر الهام بشري محض. ولا يمكن للمواجهة بين الإسلام والحداثة أن تنشأ على مستوى جدّي إذا لم تؤخذ في الاعتبار أولوية القدسية في المنظور

الإسلامي وانعدامها في الفكر الحديث. فالإسلام لا يمكنه إجراء حوار مع العلماني اللاديني، لأن ذلك يضع الأخير في موقف شرعي. فالعلمانية يجب أن تؤخذ على حقيقتها المتمثلة في إنكارها ونفيها للقدسية.

التّبسيطية:

وفي الختام، من الضروري أن نذكر أن التبسيطية التي هي إحدى صفات الفكر الحديث، هي الأخرى أثرت على الإسلام في مواجهته مع الحداثة. فأحد تأثيرات الحداثة على الإسلام هو قصره في عقول الكثيرين على واحد من مجالاته فقط، أي الشريعة، وسلبه أسلحته الفكرية التي وحدها يمكن أن تتصدّى لهجمة الفكر الحديث على حصون الإسلام ومقاومتها. الشريعة بطبيعة الحال أساسية للدين الإسلامي، أنها الأرضية التي يعقد عليها الدين، ولكن التحديات الفكرية التي تطرحها الحداثة في صورة النشوء والعقلانية والوجودية والإلحادية وما شابهها يمكن الرد عليها فقط فكرياً وليس شرعياً ويجب ألا نتجاهلها ونتوقع أن يحدث نوع من التزاوج السحري بين الشريعة من جهة والعلم الحديث والتقنية من جهة أخرى. إن الالتقاء الناجح للإسلام مع الفكر الحديث يمكن أن يحدث فقط عندما نفهم أصوله وفروعه فهماً تامّاً. وعندما يقوم الدين الإسلامي بكليته لإيجاد حلول للمشاكل العديدة التي تطرحها الحداثة أمام الإسلام. وفي هذه القضية تكمن الحكمة أو الحقيقة الموجودة في بؤرة الوحي والتي ستبقى صالحة ما ظل البشر بشراً يشهدون بوجود الله وفقاً لطبيعتهم الدينية وعبوديتهم لله، تلك العبودية التي تبرر وجود البشر.